ممدوح عدوان

الأبتر

أ. علاء الدين

(الأبتر)

تصوير http://facebook.com/kotobmamno3a

تصوير https://twitter.com/kotobmamno3a

* ممدوح عدوان : الأبتر

* الطبعة الثانية ١٩٨٤ (صدرت الطبعة الأولى ١٩٧٠)

* جميع الحقوق محفوظة

* الناشر :

دار الحوار للنشر والتوزيع
سورية ـ اللاذقية ـ ص ب ١٠١٨

http://facebook.com/kotobmamno3a تصوير

الأبتر

ممدوح عدوان

دار الحوار

كي تطولَ الشمسَ
غص بين الترابْ
ياصديقي ، كالشجرْ
يغمد الجذرَ عميقاً ،
ثم يعطي للسحابْ
ساعدَ الجذع ، وغصناً
وثمر

محمود درويش

https://twitter.com/kotobmamno3a تصوير

الفصل الأول

الشمس حادة . . والأرض حوله ظامئة يابسة يباس شفتيه وحلقه . كان القيظ يثير غضبه وغيظه وقرفه . تمنى لو يستطيع أن يتقيأ . . ان يهرب من نفسه ، أن يجد إنساناً يحدثه عن أي شيء . . ان يتحدث بشيء يساعده في ابتلاع هذا الجيشان المبهم المليء بالقرف والارتخاء .

ورغم أن الشمس كانت تميل إلى المغيب ، إلا أن ذلك العجوز الذي كان متكئاً على حجر فوق تلك الرابية الترابية ، مطلا على الأرض العطشى ، كان مايزال يحس بالقيظ ، وكان هذا الاحساس يجعله يبقى حيث هو في هذا الاسترخاء العاجز دونما رغبة في الوقوف أو التحرك أو العودة إلى البيت .

جال ببصره في السهل المنبسط أمامه فرأى أن الأشجار ذاتها تحس مايحسه من قيظ . . قدر ذلك من الالتواء الذي رآه واضحاً في نهايات الأغصان . . واعتقد انها مهيأة للذبول .

كان راضياً عن نفسه رغم ذلك . لقد اشتغل منذ الصباح . . وفرك جفنيه ليمسح ماظن انهما يحملان من تراب .

لكنه الآن ، وفي لحظة الراحة ، بدأ يحتاج إلى الآخرين وبدأت هذه الحاجة تلح عليه إلحاحاً مزعجاً .

لم يكن قد اهتم كثيرا لذهاب حسن الصالح . لقد ذهب كغيره . ليس هذا مهماً . صحيح أنه غضب قليلاً في الصباح عندما اكتشف الأمر ، لكنه كان قد اعتاد هذا الغضب القليل مع النزيف البشري الذي اصيبت به القرية منذ الحرب .

كل يوم كان يستيقظ فيعرف أن عدداً من أهالي القرية قد نزحوا إلى دمشق . . وكان يراهم ، أحياناً ، فيشعر برغبة مبهمة في البكاء . . ويتمنى لو قام إليهم يرجوهم البقاء . لكنه كان يظل مسترخياً . يعبىء غضبه بصمت ليفرغه في محادثة مع حسن الصالح .

وحين كانا يجلسان في المساء وحيدين ويحسّ بالشوق نحو أي منهم كان يكتم شوقه حتى عن حسن الصالح . لكنه كان يظل يدور بالحديث حتى يصل إلى ذلك الذي يشتاق إليه لحظتها . . وكان حسن الصالح يقول عادة «والله اشتقت عليه» فينهال العجوز بالشتائم : «قليل الأصل !! ماالذي يأخذه إلى دمشق ؟ ألم تعد تعجبه المنصورة ؟ أفي كل مكان يجد جلسة كهذه ؟ أتصدق أنه كان خائفاً ؟ أقسم بالله أنه ليس الخوف وحده . وممَ يخاف ؟ من اليهود ؟ هانحن هنا منذ الحرب ماذا أصابنا ؟ لاتصدق . لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا» .

وحتى حين جاء ذلك الضابط الاسرائيلي ومعه بعض الجنود وأمروا أهل القرية أن ينزحوا وأن الجنود سيعودون لقتل كل من يبقى إلى مابعد ساعتين ، فقد عاد إلى بيته بعد أن سمع ماسمع وكأن الكلام لم يكن موجهاً إليه .

وحين عاد الجنود أدركوا أن قسماً من أهل القرية قد نزح . لكن الغالبية لم تزل في البيوت . وجمعوا أهل القرية كلهم ثم انتقوا ثلاثة شبان أوثقوهم أمام أهل القرية وأطلقوا عليهم النار ثم قالوا انهم سيقتلون كل من يبقى بالطريقة

ذاتها . وحين رحلوا قام العجوز مع بعض الرجال بنقل الجثث ثم صلوا عليها ودفنوها . وبعد ذلك عاد إلى بيته حزيناً غاضباً دون أن يخطر له ان يرحل او يخاف .

وبين يوم وآخر كان يمر في قريتهم نازحون من قرى أخرى يروون لهم روايات تقشعر لها أبدانهم عن القتل والهدم ومسح القرى عن وجه الأرض . لم يكن العجوز يجد سبباً لتكذيبهم . كان قد سمع الكثير طوال حياته عن فظائع هؤلاء المحتلين لكنه لم يخطر له ، أبداً ، أن «المنصورة» يمكن أن تهدم أو أنه يمكن أن يقتل .

وكان الآخرون يهربون في الليل .

تسعة أشهر مع النزيف ثم شهر كامل مع حسن الصالح : مع القطرة الأخيرة التي تأرجحت طويلا ، وأخيرا سقطت . «بحفظ القرد . لوكان فيك خير لما بقيت . وجودك وغيابك سيان . هل كنت تظن انني استبقيتك لحاجتي إليك ؟ افعل مايحلو لك . آه لو ظل انسان واحد فقط لاحكي له عنك» لكنه ، الآن ، يتمنى لو كان حسن الصالح ذاته موجوداً . جميلة جلسة المساء مع عجوز مثلي . كنا سنتحدث ، أو ربما نتشاجر . عشرة طويلة ورفقة عمر . أتقن كل سنا مشاجرة الآخر . وتذكر المشاجرة الأخيرة .

- ماهذا ؟
- بذار
- بذار؟
- طبعاً بذار . ألا تعرف ماهو البذار ؟
- ولم البذار ؟
- ياسبحان الله . حسن الصالح يسألني لم البذار
- أقسم بالله لم أعد أفهمك . ماهذا يارجل ؟ هل تفكر في البذار جدياً ؟

ـ وهل تراني أمزح ؟

ـ أريد أن أفهم : هل جرى لعقلك شيء ؟

ـ ياصلاة محمد . ماهذا المخلوق ؟ أأضربه فأساً أشق قرعته ؟
أتريد أن تجعلني أفقد عقلي ؟

ـ يارجل ياخرفان . شغل هذا الرأس . هل يفكر المجنون في أن يخبىء بذاراً في مثل هذه الظروف ؟

ـ أو لا يأكل الانسان في مثل هذه الظروف ؟

ـ إذن فإقامتك طويلة من غير شر ؟

ـ ولم لا ؟

ـ وهذا البذار للشتاء القادم ؟

ـ طبعاً . يجب أن نفكر في غدنا .

ـ لو كنت تفكر في غدك لرحلت .

ـ أعدنا الى الحديث ؟ لم لا ترحل ان كنت عاقلاً الى هذا الحد ؟

ـ ألا ترى الموت محيطاً بنا ؟

ـ قلت لك لن أموت .

ـ ربك هو الذي يقرر ذلك .

ـ وأنا أقرر كيف لا أموت .

ـ أستغفر الله ، ماهذا ياادريس ؟ تكفر أيضاً ؟

ـ أعني حين يقرر الله سبحانه وتعالى أن يأخذ أمانته هو حر .
لكن حتى ذلك الحين لن أسمح لنفسي أن تموت جوعاً . سأموت بطريقة أفضل .

ـ ستموت بطلقة في مؤخرتك .

ـ وأنت ستموت لكثرة تفكيرك في الموت . وحين يأتون لقتلك لن يجدوا فيك مايقتل .

ـ ألم تفهم ، بعد ، يامجنون انهم يستطيعون قتلك في أية لحظة ؟ وأنهم لم يقتلوك بعد لأنك عجوز خرف لاخطر منك على شيء .

ـ عجوز واحد مثلك . اسكت .

ـ أنا ؟ ياخرفان ياقليل العقل .

جميل غضبه . وجميل عدم فهمه . كنت أثور فعلاً . لكن شجارنا لم يكن يدوم طويلا . لوجاء الآن لجعلته يصرخ غيظاً .

كان هذا أملاً خافتاً ، فهو يعرف أن حسن الصالح قد رحل . وانه قد ظل وحيداً كهذه الشجرة .

لقد داخله الشك دائماً في أن حسن الصالح لن يبقى طويلا . لكنه ظل حتى النهاية ثم ذهب . كان حسن الصالح كثير التخوف . كان يخاف من كل مايسمع لانه يصدق كل مايسمع . حتى ماقاله له ذلك الجندي اليهودي من أن هذه الأرض لليهود وانهم قادمون لاستردادها .

ـ وهل سمعت ياادريس ؟ يقولون ان الارض يهودية .

يومها ضحك ادريس حتى آلمه حنكه ، ثم شرح له انهم يكذبون وان هذه الأرض لهم . لادريس وحسن الصالح وخالد الأحمد وهلال البشتاوي ، وان هؤلاء طبعاً ، ليسوا يهوداً . وان ذاكرتهم لا تحدّ أحداً سبق له أن فلح هذه الأرض غيرهم . وانهم لم يكونوا يهوداً في أي يوم .

ـ لكنهم يقولون انها يهودية منذ آلاف السنين .

وضحك مرة اخرى ثم أضاف ساخراً : اذن سيدنا محمد يهودي وابو زيد الهلالي وعنترة بن شداد و دياب بن غانم كلهم يهود . هل تصلق هذا الكلام الفارغ ؟

هيه . الابله . خائف دائماً . ماالذي يخاف عليه بعد هذا العمر ؟ صحيح انه كلما كبر الانسان في السن كلما ازداد تشبثاً بالحياة . كان يخاف على نفسه وعلى الذين رحلوا .

ـ هل هم . في امان ؟

ـ طبعاً في أمان . لماذا تشغل نفسك بهم ؟

ـ قلبي عندهم ياادريس .

خائف على كل شيء في هذه الحياة وكأنه ربى كل مافيها بتعبه . حتى أنا .

ـ وأنا أيضاً ياحسن ؟ أنا أكبر منك بعامين . لاتنس ذلك . فلاتخف علي .

ـ مجنون مثلك يخاف عليه الطفل . أين كنت ؟

ـ ماالذي أيقظك في هذه الساعة ؟

ـ سمعت صوت اطلاق نار فجئت اطمئن عليك . وحين لم أجدك في البيت خفت عليك .

ـ خفت علي ؟ أم خفت على نفسك ؟

ـ أين كنت ؟

ـ خرجت أتفرج . ليس هناك شيء . اليهود يعملون مناورة .

ـ تتفرج ؟ مجنون . والله العظيم مجنون .

ـ ولم لا أتفرج ؟ سأقول لك الحقيقة . أنا كل يوم آتي إلى هذا المكان لأتفرج .

ـ على اليهود ؟

ـ لا : أنظر إلى أضواء دمشق .

والتفت من مكانه صوب دمشق فلم يجدها .

في الظلام ستظهر أضواؤك المرتجفة .

وظل ينتظر .

الفصل الثاني

كل ماكان في قلبه من حب للبشر وللأولاد والزوجة سكبه عليها . كان يقضي ساعات طويلة وهو يحدثها أو ينظر إليها صامتاً وكأنه يصغي لحديثها .

أنت أيضاً وحيدة . ولكن لابأس . أنا معك . لاتخافي . ومد يده يمسح جبينها ورقبتها . العجل ميت منذ الحرب وزوجته ميتة منذ عامين . هاجر الأهل والأولاد والجيران . وكانت البقرة هي كل ماتبقى له .

ورغم انه كان يحبها ذلك الحب كله ، ويجد تلك اللذة في محادثتها ؛ إلا أنه ، أحياناً كان يخشى أن ينظر في عينيها . كان يرى فيهما اتهاماً له . وسؤالاً قاتلا عن ابنها .

حين نفق العجل أيام الحرب سلخه وحشا جلده بالتبن . ثم علق «البوّ» في البيت ليضعه أمامها كلما أراد أن يحلبها . وخلال عمله ذلك كان يخشى ان ينظر في عينيها . كان يحس انه يسرقها بعواطفها . وهذا هو الشيء الوحيد الذي كان يعكر صداقتهما .

ولم يكن يجد لذة تعادل لذة خدمته لها إلا حين كان يعمل في الأرض واليوم عمل حتى المساء . والبقرة أكلت جيداً وشربت . ولكنه كان منزعجاً .

لماذا نظر اليك اليوم هذان الجنديان بتلك الطريقه ؟ هل دار في رأسيهما أن يأخذاك ؟ معاذ الله . كل شيء ولا أنت . تصوري ان أبقى وحدي . بعد أن ذهب الأولاد والجيران ماالذي بقي غيرك ؟

ولم يرض ان يجرها بالحبل ، بل وضع يده على رقبتها .

حين اقترب من البيت أحس بالجوع . كلما اقترب من البيت أو طالعه منظره يحس بالجوع . وهذا الاحساس لم يعتده حاداً ممزوجاً بالرغبة في البكاء إلا في هذه الأيام . . رغم ذلك فانه حين يقترب من البيت ينتبه الى انه يسير وهو يضرب الأرض بقدميه بشدة .

لقد عاودته ذكرى أيام زواجه الأولى : يوم كان يعود من الصيد حاملا مجموعة من العصافير . . وقد يكون موفقاً باصطياد أرنب . في ذلك الحين كان يلقي العصافير من أعلى الجدار دون أن يدخل البيت . وقد نبهته زوجته كثيراً إلى أنها قد لا تنتبه للعصافير فتأكلها الهرة أو الكلب. لكنه كان يعرف أنها جالسة دائماً بانتظاره . لقد اعتادت منه هذا التصرف .

ورغم أنه كان ، دائماً ، يفضل الجلوس في البيت وقلما توجه الى الدكان لمجالسة رجال القرية ، الا انه في ايام الصيد فقط كان يذهب الى الدكان فيمضي ساعة أو أكثر في محادثة ابي هاني صاحب الدكان او في محادثة أحد الجنود القادمين لشراء بعض الحاجيات ثم يعود الى البيت فيجد الطعام جاهزاً .

وحينما كان يعود من العمل كانت رائحة الطبخ تلاقيه قبل البيت بعشرات الأمتار . كانت سيدة بيت ماهرة . كل من في البيت كان يحبها حتى البقرة . كانت تخور باحثة عنها وتتبعها من الحقل وإليه صامتة وتركن اليها ساعة الحلب .

ومد يده يتحسس عنق البقرة من جديد . وحين وصل البيت لم يُدْخلها مباشرة ؛ بل ربطها بالباب . . كان يريدها ان تتمتع بالغروب معه أو أن يتمتع بالغروب وهي موجودة .

لاشك أنهما كانا يريدان التهام البقرة . هل خطر لهما أنها وحدها ؟ ربما كان أحدهما من قتل العجل أيام الحرب . . ربما كان أحدهما يقود طائرة في ذلك الحين . . وربما قدما متعمدين لسرقتها فهي بقرة مغرية . لولا نية السرقة لما فوجئا بوجوده ، وإلا لماذا ضحكا بتلك الطريقة ؟

عاوده الغضب الذي تملكه في الصباح عندما رآهما . لقد تفجر غضبه عندما غرقا في الضحك وعجزا عن تمالك نفسيهما . كانا يضحكان منه بلاشك . ولكن ماالذي فيه يثير كل هذا الضحك الوقح ؟ هل لانني عجوز ؟ كيف يبدو الانسان بعد الستين ؟ أليس من الطبيعي ان يكون عجوزاً ؟ أليس أبواهما عجوزين ؟ اللعنة على آباء آبائهما . لو عرفا عمري الحقيقي لما ضحكا . ان اي رجل في سني يسعل طوال النهار والليل ويحني ظهره كالدالية .

ماالذي اضحكهما ؟ منظره ؟ ان منظره يدعو الى الاحترام . هو متأكد من ذلك . فجميع أهل القرية يقفون له عندما يلقي السلام وجميعهم يلجؤ ون إليه لحل المشكلات . وحتى تلك المشكلات التي يكون ابناؤ ه وابناء اسرته واقاربه طرفاً فيها .

إذن لماذا غرقا في الضحك ؟ هل ضحكا لأنهما سيفاجئانه بسرقة البقرة ذات يوم ؟ والتفت اليها : «سأحميك بعيني» . وعلى أية حال هذا أمر لا يثير الضحك بهذا المقدار . هذه قلة حياء ، هل سخرا من كلامه ؟ انه واثق انهما لم يفهما الا القليل مما قاله . فأطولهما كان يعرف بعض الكلمات العربية بينما كان الآخر يراقبه بسخرية بليدة ويتكلم بلغة لعينة لم يفهم منها شيئاً .

ثم لنفرض انهما كانا يفهمان العربية تماماً . ماالذي قلته مما يضحك ؟ أنا رجل أزن كلمتي قبل أن أقولها .

لقد رفع رأسه حين سمع الصوت . وعندما رآهما كانت الحرب قد خرجت من ذهنه فانتظرهما دون قلق . تصورهما في البداية جنديين سوريين . . وقريته اعتادت استقبال هؤلاء الجنود في دكان ابي هاني وفي الأزقة وعند العين . . كان الجنود قسماً من القرية . . جندي تزوج فتاة منها . . وآخر حاول الاعتداء على فتاة . . جنود يتعرضون للفتيات الذاهبات الى العين . . آخرون يبحثون عن امرأة تغسل ملابسهم بالاجرة . عدد من أهالي القرية يحبون الجنود لأنهم يحمون الحدود ، آخرون يكرهونهم لأنهم يسرقون المواسم أو يفسدون الأراضي بالطرقات والحفر !!

لذلك توقع أن يعبروا به دون كلام . ولكن هذا التوقع لم يدم أكثر من لحظة . تذكر بعدها الحرب والهزيمة وادرك انهما من جنود العدو . وعندما حدق نحوهما مستغرباً رأى في وجهيهما دهشة مغيظة لم يستطع تفسيرها .

كان أول من رأى العجوز ذلك الشاب الأشقر القصير الذي لكز رفيقه بذراعه مشيراً نحو العجوز ، ثم اقتربا والضحكة ترف على وجه الطويل .

ـ مرحباً .

قالها الطويل وهو يتباهى أمام صاحبه بأنه قال كلمة عربية .

ـ مرحباً .

أجاب العجوز بجفاف ولامبالاة .

ـ ماهذا ؟

وجد العجوز السؤ ال على قدر كبير من الغباء . ولما كان السؤ ال لا يحوي تهديداً أو سخرية بل استفهاماً جاداً فضل أن لا يجيب وعاد إلى عمله متجاهلاً وجودهما .

لقد داخله شيء من الخوف عندما رآهما يقتربان . فهو لم ير الجنود الاسرائيليين طوال حياته حتى جاءت هذه الحرب وفوجىء بأنهم شباب شقر وجميلون . لكنه لم يعرف بعد كيف يمكن أن يتحدثوا خارج نطاق التهديد . ولم يعرف ماذا يمكن ان يثيروا في نفس الانسان زيادة على الخوف والكراهية . لكنه الآن وهو يسمع هذا السؤ ال الغبي أحس انه يحتقرهما . وسر من نفسه ، اذ وجدها في موقع القوي . إذْ هل هناك انسان يفهم كم يبلغ ثلث الثلاثة الا ويعرف انه يحفر ساقية .

ـ هيه .

صاح الأشقر القصير فالتفت العجوز مستفهماً . وأشار الطويل بيده اشارات متعددة توحي بالساقية التي لم يستطع ان يجدها في المفردات التي يعرفها .

ـ ماء ؟

هز العجوز رأسه موافقاً .

ـ لماذا ؟

يارسول الله ، كاد رأسي ينفجر عندما سمعت هذا السؤ ال . لماذا يحفر الانسان ساقية ؟ ألا يعرف الحمار لماذا يحفر الفلاح ساقية ؟ ومرة اخرى لم يجب .

عاد الطويل الى الحديث بركاكة :

ـ أنت وحدك .

ورفع العجوز رأسه غاضباً .

ـ كيف عرفت ؟

ـ أعرف .

قالها الجندي باسماً . ولم يجد العجوز مايقوله فتابع الجندي :

ـ أنت وحدك . لماذا تتعب ؟ لماذا تحفر الساقية ؟

كان يستطيع أن يستمر في الكلام أكثر من ساعة إجابة على هذا السؤ ال لكنه أحس سلفا أنهما لن يفهماه . فأجاب بطريقة توضح مقدار مايعتقد أنهما غبيان :

ـ من أجل الماء .

ـ ولكن لماذا الماء ؟

كان الطويل ، الآن ، يعتقد ان العجوز غبي .

ـ لكي أسقي الأرض .

ـ ولكن انت و حدك . اليس كذلك ؟

ـ نعم .

وتوجه القصير بلهجة جادة إلى زميله وتحدثا باللغة التي لم يفهمها والتي جعلته يحس بالغيظ وكأن شخصاً يغتابه . والتفت الطويل إليه :

- أين نبع الماء ؟

أشار العجوز بيده إلى النبع القريب ، فذهب القصير مسرعاً وبيده مطرتان لاملائهما . بينما قرفص الطويل قربه وبدأ يكلمه :

- لماذا تتعب نفسك بالحفر ؟ انت وحدك ،

نظر إليه العجوز بهدوء وأخذ يتملى وجهه . كانت ذقن الجندي الشاب بحاجة إلى الحلاقة ، وكان وجهه نحيلاً . وتمنى ، بغتة ، لو يضربه بهذه الفأس بين عينيه ، كان يحس أنه غبي غباء يجعل دماءه تغلي .

- أنا لا أفهم لماذا تعمل ؟

ومع ذلك يقولون إنها أرضهم . ليت حسن الصالح هنا ليسمع بأذنيه . معذور أيها الجندي إذ لا تفهم لماذا أعمل . لو كانت لك أرض تعمل بها لفهمت .

والتفت إليه ثم بدأ يشرح له مستخدماً يديه ليتأكد من أن هذا المخلوق سيفهم أخيراً .

- الحرب وقعت ، قنابل كثيرة سقطت ، أتفهم ؟

هز الشاب رأسه وهو يسمع باهتمام ظاهر ، وتابع العجوز وكأنه يشرح أمراً معقداً لطفل صغير .

ـ مات أطفال ونساء ورجال . ماتت حيوانات أيضاً ، أتفهم ؟ ابن هذه البقرة مات في الحرب ، كان ابن شهرين أتفهم ؟

ـ أفهم .

ـ انتهت الحرب وجاء جنود مثلك أمرونا بالرحيل ، وأطلقوا النار على ثلاثة شباب لأنهم لم يرحلوا ، أتفهم ؟

ـ أفهم ولكن .

ـ لذلك خاف الجميع ورحلوا ، أتفهم ؟

ـ أفهم ، أفهم ، وبقيت وحدك ، ماالفائدة من عملك ؟

ـ الساقية ضرورية ، كانت القرية ستشقها لولا الحرب ؟

ـ لكن الجميع ذهبوا ، فلم الساقية ؟

ـ سيسقون أرضهم بها عندما يعودون .

ـ يعودون ؟

ـ طبعاً . لقد تأخروا قليلاً . ولكن لابأس انني أتوقعهم اليوم أو غداً .

وانفجر اللعين بتلك الضحكة الصاخبة . ما أثار غيظه هو أن الضحكة كانت صافية صادقة نابعة من قلبه . وقد كاد يفقد توازنه وهو مقرفص لكثرة ماهزه الضحك وأثاره . هل قال شيئاً يثير كل هذا الضحك ؟ وراح العجوز يرقبه وهو يشك ان في هذا الرجل مساً . إلا أن الجندي ، وسط ضحكاته ، نادى زميله بصوت عال وكان قد عبأ المطرتين وعاد .

ـ أندريه .

ثم أشار له وهو يتحدث بكلمات يقطعها الضحك . واقترب القصير متهيئاً للضحك وبدأ الطويل يشرح ثم انفجر الإثنان من جديد .

نظر إليهما باستخفاف حين استطاعا تمالك نفسيهما . ثم قام الطويل فتناول مطرته وقال وهو ينفض التراب عن مؤخرته :
ـ أكمل الحفر . نحن هنا . لا تخش شيئاً .

وعادا إلى الضحك من جديد وهما يبتعدان . وحين مرا بالبقرة رآهما يمعنان النظر إليها ، وكان العجوز قد توقف لمراقبتهما متحفزاً ، انتظر ان يخطو أحدهما خطوة واحدة صوب البقرة ليريهما كيف يكون الضحك . هذا الشاب معتز بنفسه أكثر مما يجب . انه فخور بهذا المسدس الذي يحمله ، وصاحبه مثله ، لو اقتربا من البقرة لرأيا ماذا سينفعهما هذان المسدسان . هذه الفأس كانت ستعلمهما جيداً ، وشد عليها بقبضته .

وفيما كان مستلقياً مع الغروب خطر له انهما يراقبانه من مكان ما ، وانهما غارقان في الضحك من جديد وبالصخب ذاته .

المخزي في الأمر هو أنهما يعتقدان انني في حاجة إليهما ، واستعاد كلمات الطويل : «لاتخش شيئاً» أأنا أخاف ؟ وممن ؟ ومن سيطمئنني ان خفت ؟ هذا القرد ؟ لقد عرفت من الخوف مالم يحلما به ، لكنه خوف من نوع آخر . كان يخاف الدرك لكنه يواجههم . وهذا سر خوفه بينما خوف الآخرين يدفعهم إلى التواري عن أنظار الدرك ، ومرة خاف كثيراً وهو يعبر مخاضة ، خاف ان تجرفه المياه ، خاف وهو يعبر بينما خوف زملائه منعهم من النزول الى الماء

خاف مثل أهل القرية يوم الحرب ، خاف أن تصيبه قذيفة أو شظية أو طلقة .

خاف ان يتهدم بيته ، أو تحترق مزروعاته ، وحين اجتمع أهل القـرية سرت موجة أكبر من الخوف في الجميع ، واقترح بعضهم النزوح إلى دمشق فاستنكر هذا الاقتراح مع المستنكرين ، وظل في القرية مع خوفه ، وحين كان يأتي إليه من يقدم مبررات للنزوح : «لقد قتلوا فلانـاً وفلانـاً وسيقتلوننـا . . الحـرب عمياء . . ابعد عن الشر وغن له . . » كان يحس ان هذا الكلام غير مقبول وغير مقنع . . ولما لم يكن يملك الحجة الكافية للمناقشة أو الرغبة في خوض جدال من هذا النوع كان يترك الجلسة حانقاً ، وهكذا عاش مع جراح القـرية ونزيفهـا المستمر دون أن يقوى على إيقافه حتى وصل النزيف إلى حسن الصالح .

وزاد الطين بلة قدوم نازحين من قرى مجاورة ، عبروا قريتهـم كالسيل فجرفوا معهم عدداً لابأس به بأحاديثهم وبموجة الذعر التي خلقوها بحكاياتهم عن تهديم القرى والقتـل دون تعيين والخـوف على العـرض والأطفـال ، أمـا الأرض فلم يكن احد يتحدث عنها . فيصرخ فيهم وهم يحملون مايقدرون على حمله :

- إلى أين ياجماعة ؟
- سيأتي دورنا .
- والأرض ؟
- ماذا نفعل ؟ يرزقنا الله . المهم سلامة العرض والأطفال .
- لا تخشوا شيئاً . من له عمر لا تقتله شدة . ان ذهبتم من سوف يعيد تعمير بانياس وكفر حارب وعين زيوان والمنصورة ؟ ظلوا لنتعاون .

لم يكن لدى أحد صبر للاستماع . مجانين . لا يرون للحياة إلا وجهـاً واحداً . كان عليهم أن يعيشـوا قدر ماعشـت ليعرفـوا الحياة على حقيقتهـا .

ليعرفوا كيف جاءت «ثلجة الأربعين» فلم تترك أخضر على وجه الأرض ، وكيف نما الشجر من جديد . المهم أن الجذور كانت ماتزال في التربة . أطفال .

وهيأ نفسه للسخرية منهم . أبو علي . وتملكته رغبة مفاجئة في الضحك وهو يتصور أبا علي منكمشاً متعرق الجبين غير قادر على الرد على سخريته ونكاته . سأعيد على مسامعه كلماته التي قالها أكثر من مرة :

- والله يامرحبا بالموت .

كان يقول ذلك كلما دار الحديث عن الحرب ، اي ياأبا علي . أنا اعرف انك كريم وابن عالم . لقد ذهبت الى دمشق لتستقبل الموت . أليس كذلك ؟

وغرق العجوز الوحيد في الضحك . وارتفعت ضحكته الى قهقهة . وفاجأه صوته فعرف أنه وحيد ، فسكت وقد جثم عليه الضيق . وازداد إحساسه بالوحدة وهو يتصور ان الجنديين الاسرائيليين يرقبانه من مكان ما . فقام الى البقرة وجر الحبل المربوط الى عنقها ثم أدخلها الى البيت .

الفصل الثالث

كان مايزال ، رغم الأعوام الستين التي اجتازها ، قوي البنية منتصب القامة ، كان من ذلك النوع من الرجال الذين لاتدخل الشيخوخة إلى أجسادهم ، بل تكتفي بالمسح قليلاً على وجوههم فتجعدها وعلى الشعر فيشيب .

ولم يكن من ينظر إليه وهو يسير إلى الحقل يجر بقرته ليقدر عمره بأكثر من أربعين عاماً .

ماكاد يصل الى الحقل حتى ربط البقرة وتناول الفأس وبدأ يعمل . كان يريد ان يحفر حول جذوع الدوالي كما هي العادة كل عام . فالأشجار كالأولاد يجب أن يعتنى بها حتى تشب . وكانت الشمس قد ارتفعت في الأفق عندما انتهى من آخر دالية .

لقد بدأ الحفر حول الأشجار منذ أن ظل مع حسن الصالح . وحسن الصالح كان عاجزاً عن العمل يجلس قربه في ظل شجرة يدخن ويحدثه . وكلما ضجر من الحفر حول الدوالي توجه الى الساقية وعمل بها . وهو اليوم يتجه اليها نهائياً بعد أن انتهى من الدوالي .

توقف أمس عن العمل بها حين وصل الى تلك الصخرة التي اعترضت الساقية الجديدة المتجهة الى شجرة الجوز . اذ ليس من المعقول ان يظل يسقي

هذه الشجرة بالتنكة والماء قريب منها وهي متمكنة الجدور . وإذا وصلت الساقية استطاع ان يزرع مسكبة من البندورة ومسكبة من الباذنجان يؤمن بها خضار الصيف . وحين يأتي الخريف يبذر الحبوب التي احتفظ بها .

أحس أنه تأخر قليلاً في زراعة البندورة والباذنجان . ولكن هذا ليس مهماً . المهم أن يصدق معه اهل «نقيب» ويجلبوا له الشتل .

هذه الصخرة اللعينة ، كيف سأرفعها ؟ كان يستطيع ان يدور بالساقية حولها . إلا أنه حين جسها في البدء بضربتين خفيفتين بالفأس تراءت له سهلة الاقتلاع ، لكنه عمل بها أمس أكثر من ساعة وهاهو اليوم يجهد نفسه بها دون فائدة . ولم يمل . لن أدور بالساقية حولها . لماذا أبقيها في أرضي وأقتل أرضاً اخرى بالساقية ؟

حفر حولها من جميع الجهات ضرب الفأس تحتها ووضع حجراً تحت الفأس وضغط دون فائدة . ادخل مقبض الفأس تحتها ورفع فسمع طقطقة المقبض . وتوقف خشية أن ينكسر . «ماهذا الذنب ؟» ترك الفأس ووضع يديه تحتها وبدأ يرفع ، المصيبة أنها تهتز قليلاً . الحمد لله ان حسن الصالح ليس هنا وإلا لتفلسف بتعليق ساخر حول عجزي ولضحك حتى بان فكه الخالي من الأسنان ودمعت عيناه . كل مرة يعجز فيها عن فعل شيء ويراه حسن الصالح يتشاجران .

- كفاك مكابرة ياادريس . ختيرت . دعها للشباب راحت عليك .
- واحد مثلك تروح عليه .
- إلى متى العناد ؟ ساعة شغل تتعبك . اجلس وارتح يارجل . ياطماع ، هل ستأخذ معك شيئاً الى القبر ؟

ـ وهل تراني أشتغل لكي أفتح بنكاً ؟

ـ مالك ولهذا التعب ؟ لقمة فمك تكفيك .

ـ اقسم بالله لم اعمل يوماً في حياتي من أجل الموسم . ولكن هذه الأرض لايجوز ان تبقى هكذا !

ـ ولماذا كنت تجن حين تمحل الأرض ؟

ـ لأنني لا أريد ان يضيع تعبي هباء . الموسم مثل الذرية ، ألا تتألم حين تسقط امرأتك جنيناً فتحرمك ولداً ؟

ويضحك حسن الصالح ساخراً : من أجل هذا تعمل إذن ؟

ـ قسماً بقبر النبي لا أتذكر انني تركت الشغل يوماً بسبب التعب . أحس فقط أنني اكتفيت ، مثلما تكتفي من الأكل أو من زوجتك .

ويضحك الخبيث بسخرية . كلهم كانوا يضحكون حين يتحدث بحرارة عن العمل . هذا هو الشيء الذي لم أستطع شرحه لهم .

والتفت بغتة فلم يجد احدا حوله . كان العرق يتصبب من وجهه . ولايدري لماذا كان يتوقع ان تصطدم عيناه بعيون الجنديين الاسرائليين . انه يحس دائما انهما يراقبانه . انهما يفعلانِ ذلك دون شك ، ودار بنظره في التلال البعيدة وهو يمسح جبينه بكمه . ولم يستطع ان يحدد مكانهما اذ لم يكلف نفسه عناء النظر الى يد الجندي وهو يشير اليه « نحن هنا قريبون منك» على اية حال ليس من المعقول ان يصدق في اشارته الى مكانه . فهو عسكري . ولن يدلني على مكانه بهذه البساطة . فليضحك قدر ما يشاء . ليس هناك مايضحك على اية حال . القى نظرة على البقرة وعاد الى الصخرة يحاول رفعها .

في الحكايات يجد الانسان تحت صخرة كهذه كنزا . واحس بالالم في زندية وكتفيه . لو كان حامد هنا ليساعدني . حامد شاب وهو قادر على رفعها وحده او رفعها معي .

ترك الصخرة وجلس يدخن لفافة في ظل شجرة الجوز . كانت الشمس حادة تحرق ذنب العصفور وهو ينقل بصره بين الارض والبقرة . كانت الارض تبدو كأنها تنبض ، كان يحس ذلك كبطن امرأة حامل . اين يكمن هذا الخصب ؟ وماسره ؟ كيف تختلف ارض عن اخرى اختلاف امرأة عن اخرى . وتذكر ماكان يقوله لابنه :

« الارض امرأة تحتاج الى رجل فتحمل له وتعطيه . والذي يستحي من ابنة عمه لايرزق بولد . الارض التي لانهتم بها ولا نسكب فيها عرقا تهملنا وتخوننا ، على الاقل لاتعطينا خبزا» .

وَمَدَّ بصره إلى الحقول البعيدة فتملكته غصة باكية . كانت الحقول تموج بقمح كثيف دون عناية ومعظمه ذو سنابل فارغة .

حدثت الحرب قبل الحصاد . معظمهم لم يستطيعوا جني محاصيلهم ، تساقط القمح في الخريف ثم نما في الشتاءوالربيع . وها هو الآن كثير العدد قليل الفائدة ، الارض رغم اهمالهم لها انبتت لهم قمحا ، ارض خصبة تعالوا انظروا يا كسالى يا ناكري المعروف .

القرية ايضا فارغة ، بصره ينتقل اليها فتنبعث في قلبه الرهبة . قرية خاوية دون إنسان . لماذا ابقى اليهود عليه فلم يطردوه ولم يقتلوه ؟ ألأنهم يعتقدونني عاجزا عن ايذائهم ؟ ام انهم يبيتون لي امرا ؟

لم يستطع قبول فكرة انه مهمل لانه عديم الضرر لهم . وحين رأى سيارة الجيب العسكرية تعبر القرية عرف انها تقصده فارتاح قليلا .

وقفت السيارة غير بعيدة واطل منها وجه :

ـ الحاكم العسكري يريدك في القنيطرة .

ـ يريدني انا ؟

ـ نعم . انت .

وبنزق مفاجىء وماذا يريد مني الحاكم العسكري ؟ ألا ترى أنني مشغول ؟

ـ لاادري . طلب منا احضارك ، لاتخف .

ـ انا لا اخاف الا ربي ، عندي شغل ، لن اذهب .

ـ وقال ايضا : اذا لم يأت معكم اجلبوه بالقوه .

ـ بالقوه ؟ ومن سيأخذني بالقوه ؟ انت ؟ انزل وجرب عزمك ، وأمسك بالفأس .

نزل اليه وجه باسم ودود :

ـ لا . لا . لن يستخدم القوة احد . لكن النزول الى القنيطرة ضروري . اذ ربما كانت لك وصية او رسالة او اي شيء اخر من دمشق .

ـ من دمشق ؟

ـ نعم ، ربما ارسلوا لك شيئا مع الصليب الاحمر .

ولأن العجوز : انتظرني قليلاً ، سأطول للبقرة وآتي .

سار الى البيت وأخرج حبلا طويلا ، ربط طرفه الاول الى قرني البقرة والطرف الاخر الى شجرة الجوز ، كان الجندي يتبعه باسما :

ـ لم تفعل ذلك ؟ هل تخاف ان تهرب البقرة ؟

ـ لا ، ولكن لكي لاترعى الرزق .

ارتسمت على وجه الجندي ابتسامة خبيثة ذكرته بضحكات الجنديين نظر الى البقرة مذعورا ثم التفت الى الجندي :

ـ واذا سرقت البقرة ؟

ـ اطمئن لن يسرقها احد صدقني .

ولم يجد مجالا للمناقشة ، ادهشه هذا اللطف ، حين كان اهل القرية هنا كان هؤلاء أكثر شراسة . وفي المقعد الخلفي من السيارة كان غارقاً مع أفكاره .

ـ هل انت وحدك في القرية ؟

التفت الى السائق الذي طرح عليه السؤال ثم اجاب :

ـ نعم وحدي .

ـ ولماذا لم تذهب ؟

ـ وإلى اين اذهب ؟

ـ إلى حيث ذهب الجميع

ـ ولماذا اذهب ؟ انا هنا في بيتي ، والاخرون سيعودون

ضحك الجندي ثم التفت الى زميليه ، تكلموا باللغة الغريبة التي لم يفهمها ، والتفت احدهم :

ـ هل تصدق انهم سيعودون ؟

ـ طبعا . ولم لا يعودون ؟ هل يعقل ان يتركوا اراضيهم الى الابد .!

ـ يبدو انك تحب اغنيات الاذاعة كثيرا .

اطرق بصمت. لماذا لم يخطر له انهم قد لايعودون ؟ ربما لن يعودوا . ولكن لمن يتركون هذه الاراضي التي تعبوا فيها وتشاجروا من اجلها ؟ عادت ضحكات الجنود تسحبه من شروده : لقد انتصرنا عليكم .

ألم تسمع بنتائج الحرب ؟ هزمنا الجيوش العربية كلها .

ـ ما معنى هذا ؟

ـ يعني حطمنا الجيوش العربية وأخذنا أرضاً جديدة من سورية ومن مصر ومن الاردن .

ـ اخذتم ؟

ـ طبعا ، الم تعرف هذا بعد ؟

ـ اعرف ان جيوشكم وصلت الى القنيطرة لكن لااعرف انكم اخذتم الارض .

ـ هذا يعني هذا ، وصول الجيش يعني اخذ الارض .

ـ لن تأخذوا ارضي .

ـ اخذناك انت وارضك .

ـ فشرت .

التفت كل منهم الى الاخر وترددت الكلمة « فشرت » كان واضحا انهم لم يفهموا ما يعنيه .

ـ انا لم اهزم .

ضحكوا من جديد .

ـ كيف ؟ هزم شعبك كله .

ـ هزمتم الجيش فقط .

ـ وما الفارق ؟

ـ انني باق وان ارضي لي .

اقتربت السيارة من القنيطرة . ولاح له من بعيد النصب التذكاري . ذات يوم منذ اكثر من عامين وقف هنا ليرى حشدا . سأل احد الموجودين :

ـ ماهذا ؟

ـ قبر الجندي المجهول .

ـ ياحرام .لم يعرفوا اهله ؟ هل يدفنونه الآن .

ـ لا . الجندي المجهول رمز لكل جنود الوطن الذين قتلوا دفاعا عن الارض . هو جميع الجنود .

ـ وماذا يفعلون الآن ؟

ـ ضيف غريب يحيي جنود الوطن فيضع اكليلاً من الزهر فوقه . اسمع البوق .

وانبعث الصوت . كان مؤلما وغريبا كنواح مبهم احس لو ان الارض بكت واعولت لما جاء صوتها الا على هذا النحو .

ترى كم قتل من الجنود قبل أن يصل العدو إلى القنيطرة ؟ مد رأسه والتفت ليرى القبر فلم يشاهد سوى النصب التذكاري . وحين مرت السيارة بسرعة دار برأسه ملهوفاً كأنه كان يريد أن يلقي عليه التحية .

الفصل الرابع

عندما نزل من السيارة اقتادوه فورا الى غرفة الحاكم العسكري . كان رجلا جميلا يقرب عمره من الاربعين . واجهه الحاكم بابتسامة وطلب من الحاضرين الخروج وتركهما وحيدين . وهم يخرجون كان يشك ان في وجوههم ضحكا مكتوما .

بعد ان اصبحت الغرفة خالية الا منهما التفت اليه الحاكم وعيناه تبتسمان :

- كيف حال البقرة ؟

احس بمخالب تمسك قلبه . كيف عرف ان عندي بقرة ؟ وماله ولها ؟ قال متحديا :

- تدعو بسلامتك .

ضحك الحاكم العسكري :

- انت كما اتوقع .

ثم اكتست ملامحه جدية مفاجئة ،

- اسمع يا ادريس .

ابن الكلب يعرف اسمي ايضا . وتابع الحاكم .

- لقد رحل الجميع وانت وحدك الان. انا ارى انه من الخطر ان تبقى هكذا ، بقرتك مغرية وربما جاء من يسرقها فيقتلك لاجل سرقتها . وربما

فاحت الروائح من جثتك قبل ان نسمع بك .

ماذا يعني ؟ ولم هذه المقدمة ؟

ـ هل تسمعني ؟

ـ نعم .

ـ أنا أقترح عليك أن تترك المنصورة

ـ أنا ؟

ـ نعم . انت . وانت حر في ان تأخذ البقرة معك او تبيعنا اياها .

سأدبر لك من يشتريها بخمسمئة ليرة سورية . ما رأيك ؟ نحن لسنا اشرارا كما تعتقد . نستطيع ان نظل اصدقاء . مارأيك ؟

ـ لا

ـ هل ترفض صداقتنا ؟

لم تكن لهجته قاسية . ولم يكن العجوز يرى انه قادر على الاجابة احس ان هناك شيئا لم يفهمه . ظل صامتا . قال الحاكم :

ـ الصداقة ليست موضوع لقائنا . ماذا قررت حول البقرة ؟

ـ لا .

ـ انا انصحك وانا في عمر ابنك ان تبيعنا البقرة وترحل .

حين كان يقف في مخفر الدرك كان يرتجف خوفا منهم . كانت نظرات الدرك تسمره . اما الآن فلم يخف . احس انه يقف كرجل حقيقي امام انسان غريب ولن يسمح له باهانته او استغبائه

ـ ماذا قررت ؟

ـ حول اي شيء ؟

ـ البقرة ، هل ستبيعها ؟ لاأظنها تساوي اكثر من هذا المبلغ .

ياصلاة محمد كم هو غبي او ماكر . البقرة . . . البقرة . . . كأنها كل المشكلة . . وحتى لو بعته البقرة فلماذا أرحل ؟

ـ لا .

ـ انت تعرف اننا نستطيع ان نفعل مانريد وبالقوه . لكننا نقدر كبر سنك . ونحن ننصحك ان ترحل .

ـ الى اين ارحل يارجل ؟

ـ الى دمشق ، حيث رحل الباقون .

ـ الباقون سيرجعون قريبا .

ـ دعني اوضح لك الامر . لن نسمح برجوع احد . ولو كنا نريدهم هنا لما طردناهم . لقد رأيت ولا شك بعض التصرفات القاسية من جنودنا حين كانت القرية مليئة . انها الحرب . ولكنني لااظن ان هناك من يزعجك الان لانك رجل عاقل وطيب . نحن الان نريد ان نستفيد من المنصورة وبعض القرى الاخرى . فلا تحلم ان يعود احد . ان جيش الدفاع الاسرائيلي سيبقى حيث وصل .

ـ وما علاقة البقرة بهذا كله ؟

ـ يعني ان عليك ان لاتنتظر احدا . . . اي ان ترحل ، ونحن سنساعدك بدفع ثمن لبقرتك . هذا لم يحدث في تاريخ الحروب من قبل .

ـ والارض ؟ انك تنساها دائما .

ـ لا تطمع . الارض لن نشتريها .

احس بالاهانة ، وشعر ان العرق بدأ ينساب بين كتفيه .

- انا لم اذكر الارض لكي اعرضها للبيع . انا لم ابق اصلا من اجل البقرة بل من اجل الارض . البقرة والارض شيء واحد . بماذا سأفلح ارضي لو بعت البقرة ؟ انني افكر اصلا بشراء بقرة اخرى من اجل الفلاحة .

- نحن لايهمنا هذا الكلام كله .

- اسمع ، هذه الارض ارضي . وليست ارض ابيك . لقدقضيت عمري كله فيها . لن ارحل ، ولن ابيع البقرة .

كان حماس العجوز طريفا . واحب الحاكم العسكري ان لايبتر الحديث .

- يا ادريس ، حاول ان تفهم - هنا اصبحت لهجة الحاكم العسكري جادة - ولاتجبرني ان اكون قاسيا معك . نحن نريد ان نبني في القرية كيبوتز . وسنبدأ العمل بعد ايام . تستطيع ان تأتي وتعيش في القنيطرة . وسندفع لك ثمن الارض ايضا ، هل هذا يرضيك ؟

هذا المخلوق لايمكن التفاهم معه! الى القنيطرة ؟ وما الفارق بين ان اترك المنصورة الى القنيطرة او الى دمشق ؟ الطريق الى القنيطرة يوصل الى دمشق .

- لن ابيع . ولن ارحل .

واحب ان يكون اكثر وضوحا واقناعا :

- إنت لا تفهمني . هذه الارض لي . وانا حر في ان ابيعها او ابقى فيها . لم يخطر لي طوال عمري ان ابيع منها شبرا .

- انك تنسى الحرب دائما .

وانفجر ادريس :

- انتم قهرتم الجيش ولم تقهروا الارض ، انتصاركم لايعني انكم تستطيعون اخذ ارضي ، انا ليس لي الا الله وهذه الارض ، انت لاتدري ما تعنيه لي . لقد دفنت فيها خمس بقرات وثورين وابناً وزوجة . انها خصبة . وانا اعرفها حبة حبة ، فيها عمري كله . عمر من الشقاء والعرق والموتى .

وخشية ان يبكي تمالك نفسه وهدأ لهجته :

- لن ابيع ولن ارحل . اقتلوني اذا شئتم ، انا باق في المنصورة حتى يعودوا .

وصاح الحاكم العسكري : قلت لك لن يعود احد ، الم تفهم ؟ ارحل الى دمشق وستعوضك الحكومة السورية ، قل لهم انك طردت ولا تقل اننا اشترينا منك شيئا . ما رأيك ؟

- لن ابيع شيئا ، لن ابيع شبرا واحدا ، انت تعرف قيمة الرزق . ساقضي بقية عمري في ارضي .

- لن يعرقل وجودك مشروع الكيبوتز .

- أنا لا أعرف ما هذا الكيبوتز الذي تتحدث عنه . لكنني لن أرحل .

- لقد نصحتك . . مع السلامة .

كان وجه الحاكم العسكري قد فقد كل طيبة وكل قدرة على التفاهم .

نظر اليه العجوز حائرا قلقا وكأنه امام باب مغلق . تردد قليلا ، لم يدر ان كان خائفا ام انه يريد ان يقول شيئا اخر . حرك يديه حركات بلا معنى ، ولما لم يجد ما يقوله ولم يجد استعدادا من الحاكم هرب بحرجه الى الخارج .

الفصل الخامس

القنيطرة لم تزل كما هي . بعض بيوتها مهدمة . واثار الحرائق على بيوت اخرى . لكنها كما كانت منذ رأها آخر مرة .

لم يزرها منذ الحرب . كان يخافها . منذ نزل اليها اول مرة . وهو يخاف شيئا مجهولا فيها . هذا المجهول الذي يسلبه قيمته بغتة . ربما كان اتساعها او كثرة سكانها او كونه مجهولا . لا . ليس هذا هو السبب . زار قرى لم يكن يعرف فيها انسانا . كان يحس بالغربة وبانتقاص القيمة ولكن ليس الى الحد الذي تشعره به المدينة .

جاءها مرة سيراً على الاقدام مع زوجته . طوال الطريق كان كما عهد نفسه . . الرجل القوي الذي تتبعه زوجته على بعد خطوات لاهثة لتلحق بجبروته . مركز الثقل وملجأ الزوجة ، ادريس .

ظل يسير بزهوه وهو ينظر الى زوجته بطرف عينه حتى دخل المدينة ، تنقل فيها قليلا فرأى فلاحين مثله نكرات مهملة وعرف انه اصبح هكذا ، وزوجته ازدادت تضاؤلا وصغرا . لقد اضمحلا امام المدينة . كان يعرف ان هناك مدنا أكبر وقد سبق له ان زار دمشق وقيل له ان دمشق لاتبدو امام مدن اخرى الا كما تبدو المنصورة امام دمشق . ورغم انه لم يستطع تصور امتداد تلك المدن الا انه احس بالكره نحوها وبالرثاء لسكانها .

وهكذا قضى حياته في القرية . واذا ما اضطرته حاجة للنزول إلى القنيطرة أو دمشق قضى حاجته فيها بأسرع ما يستطيع ثم خرج منها دون توقف . حتى التفرج على المدينة لم يكن يستهويه . زينتها وألوانها وكتاباتها كانت ، كلها ، تجعله يحس أنه صغير وأمي ومهمل وضعيف ، ولا يملك شيئاً فيها .

هذه المرة رأى القنيطرة مختلفة . رآها عصفوراً كسير الجناح تماماً كما كانت تبدو زوجته وهي تسعى للحاق به في شوارعها ، كانت القنيطرة صامتة رغم جلبة الجنود . ان للسكان الأصليين ضجة ذات طعم خاص ، هذه اللحظة ، فقط ، عرف كم كان يحبه .

ما ان ابتعد عن مكتب الحاكم العسكري حتى دار في أحد الشوارع ليرى جماعة من سكان القنيطرة الذين بدا عليهم وكأنهم كانوا ينتظرونه . لم يكن يعرف أحداً بينهم . لكنهم توجهوا إليه بالكلام وكأنه عاش معهم كل سني عمره .

ـ مرحباً يا عم .
ـ يا هلا ومرحباً .
ـ أنت الذي طلبك الحاكم العسكري ؟
ـ نعم .
وتتالت الأسئلة :
ـ هيه !
ـ ما الأمر ؟
ـ احك لنا .
ـ لماذا طلبك .
ـ ماذا يريدون منك .

ـ احك يا رجل . لم أنت صامت ؟
ـ وماذا أحكي ؟
ـ لماذا استدعاك ؟
ـ ابن الكلب يريد شراء البقرة .
تبادلوا النظر غير مصدقين ، وكادوا يضحكون :
ـ يشتري البقرة ؟ هل قلت يشتري ؟
ـ تصوروا . ويريد أن يشتري الأرض ايضاً .
ـ لماذا ؟
ـ لكي أرحل إلى دمشق .
ـ نسألك لماذا يشتري . هل تمزح ؟
ـ هل يبدو علي انني أمزح ؟
ـ طبعاً . قلت انهم يريدون شراء الأرض والبقرة .
ـ نعم .
ـ وهل بعت ؟
ـ معاذ الله ، أبيع ؟ ابن الحرام يظن انني حصلت على البقـرة والأرض صدقة ، لا يعرف تعبي فيهما .
ـ لم تبعهما ؟
ـ طبعاً لا أبيع ، هل تبيعون لو طلب منكم ذلك ؟
ـ اسمع يا عم ، لا شك انهم يريدون بك سوءاً .
ـ فليبلطوا البحر ، لماذا يريدون السوء لي ؟
ـ عملية شراء الأرض والبقرة ليست مريحة .
ـ وأنا لم أبع .
ـ يا عم اسمع كلامنا .
ـ ماذا تريدونني أن أسمع ؟

ـ لقد استولوا على هذه المنطقة بالقوة ولم يشتروها . طردوا السكان وقتلوا وأحرقوا . كيف ترى من المنطقي ان يدفعوا لك ثمن أرضك ؟

ـ لا أدري ، هذا ما حصل .

ـ نحن نصدقك ، ولكن يجب أن تترك المنصورة ، تعال عش معنا .

ـ حلو ، لو كنت أريد ترك المنصورة كنت بعته .

ـ سيأخذون منك ما يريدون ساعة يريدون . انهم يستطيعون أخذ كل شيء .

ـ كل شيء ؟ هكذا ؟ ونحن ، أين نذهب ؟

ـ نحن خسرنا الحرب .

ـ أنا لم أخسر الحرب ، الجيش خسر الحرب ، أنا صاحب الأرض ، ما علاقة حربهم بالأرض والبقرة .

ـ لقد حاربونا من أجل الأراضي .

ـ أرضي ؟

ـ كل الأراضي ، وسيأخذون أرضك أيضاً بالقوة .

ـ فشروا ، أنا باق أنتظر الأولاد .

ـ لن يسمحوا برجوع أحد ، أمس قتل رجل من قريتنا وهو يحاول التسلل لأخذ بعض أمتعته .

لم يستطع إكمال هذا الجدال ، قال :

أنا لا أعترف على قوتهم ولا حربهم ، أنا ذاهب الى المنصورة . ثم تركهم في ذهولهم ومضى دون أن يلتفت .

تجول في شوارع القنيطرة ، تفرج على كل شيء ، دون ان يهتم لأحد ، عرف أنه أكبر من المدينة والجنود والضجيج ، ولم يعد يلتفت لأحد ، وحتى حين اقترب منه أحد السواح ليلتقط له صورة ، لم يلتفت إليه .

الفصل السادس

سار وحيداً عائداً الى المنصورة . ولـم يستطـع إلا أن يفـكر في عرض الحاكم العسكري . لو أنه باعهم الأرض والبقرة ماذا سيفعلون بها ؟ لا شك انهم كانوا سيذبحون البقرة دون ان يعرفوا كم هي عاقلة وكم تدر من الحليب وكم لاقت من العناية . والأرض . ما الذي يضمـن انهـم لن يتركوهـا تبـور وتمتليء بالأشواك ؟ ما هذا الكيبوتز الذي يتحدثون عنه ؟ وحتى لو أرادوا استثمار الأرض كيف سيحتمل رؤ يتهم وهم يجنون محاصيلها ؟ ولماذا يستثمر ونهـا هم وليس هو ؟

لاشك انهم كانوا سيردمـون السـاقية ،كم كان سيفتقـد الصخرةوشجرة الجوز والدوالي والتـراب والسنابـل ، إنـه يعـرف ترابهـا لونـاً ورائحـة وطعماً وصلابة ، لقد اشتغل فيها منذ طفولته ، ولم يكن أحد حوله يستطيع فهم هذا الإلحاح على العمل ، دائماً يعاتبونه :

- إلى متى الشغل ؟

- العمر يخلص والشغل لا يخلص .

- يلعن أبو الشغل «اقعد وارتح» .

- يلعن أبو العاطلين ، كيف تستطيعون القعود بلا عمل .

- ألا تتعب يا رجل ؟

ـ طبعاً أتعب ، وحين أتعب أرتاح ، وبعد الراحة ماذا أفعل ؟ الأرض لا يشبع منها الانسان ، الأرض والطعام والمرأة ، ترتوي من احداها فتظن انك لن ترغب فيها مرة أخرى ، لكن الرغبة تعود اليك بعد قليل وكأنك لم تلمسها عمرك ، فتعود إليها باللهفة ذاتها والرغبة ذاتها .

طوال عمره لم يفهم كيف يستطيع إنسان أن يستيقظ صباحاً ولا يحمل فأسه ويتجه إلى الأرض ، لا شك ان هناك نقصاً ما فيه ، تماماً كرجل يستيقظ فيرى زوجته إلى جانبه وهو لم يلمسها منذ شهر مثلاً كيف لا يضمها إليه ؟

جيل كسول . يريد أن تأتيه اللقمة إلى البيت . هذا هو الجيل الذي خسر الحرب ، يظنون ان الأرض قميص يغيره الانسان متى شاء .

كان في حاجة إلى من يحادثه ، من يستمع إلى رأيه . من يقول له ان كان قد أحسن بعدم بيعه الأرض والبقرة لهم فيطيب خاطره بكلمة .

وانتبه إلى نفسه وهو يقف قرب قبر الجندي المجهول . تصور انه وهذا القبر قطعتان صلبتان من الأرض وان السيول قد جرفت كل الأرض الرخوة من حولهما .

وبغتة سمع البوق . سمعه صرخة منبعثة من حيث لا يدري . ربما هي صرخة الجندي ذاته .

أنت مثلي أيها الجندي . أنت أيضاً لم تترك مكانك رغم انسحاب آلاف الجنود . لو عرضوا عليك شراء قبرك هذا هل كنت تبيعهم ؟ أنا أعرف أنك لا تفعلها سنبقى معاً ، وسأزورك دائماً ، فأنا أيضاً ، لم أبع قبري .

وانفجر البكاء الذي يختزنه دفعة واحدة ، وأحس انه يعرف هذا الجندي ، وتصوره شاباً أسمر الوجه بشاربين قويين ورأى عينيه تحدقان إليه . . ورأى فيهما نظرة ودودة .

وحين التفت ليسير سمع البوق من جديد ، الجندي المجهول يبكي . هذا أيضاً لا يجد حوله من يشكو له كان يحس بالوحدة هو الآخر وها قد وجد أهله ، لم يعد مجهولاً . سأزورك دائماً .

صوت البوق ما يزال في أذني ادريس . كان النداء طويلاً وعميقاً كعويل أو تأوه أو أنين . سمعه كالأذان الذي يصاحب الجنازة ، وسار بهدوء وصمت وكأنه أحد المشيعين .

طوال الطريق كان يفكر ويحلم ، وحين وصل إلى مشارف القرية طالعته الحقول المترعة بالسنابل ، صحيح ان الموسم رديء . ولكن لا بأس سنعوض هذا الأمر .

أحس انه يرى في هذه الأراضي المشمسة وجوهاً أليفة افتقدها طوال عمره . كأنما هو عائد من سفر طويل . وفي كل قطعة أرض كان يرى وجه صاحبها باسماً محيياً مرحباً .

لم تكن الأراضي خالية الآن . كانت مليئة بالفلاحين أنصاف عراة مطأطئين . المناجل في أيديهم وصبايا القرية يجمعن الأغمار والغناء ينبعث مثيراً النخوة للتسابق بين الحاصدين . انهم يجنون مواسمهم او يزيلون هذا الموسم الرديء من أجل موسم أفضل فيه جهدهم وعرقهم .

ووسط الأراضي رأى أرضه . رآها وحيدة . كانت تلوح إليه بشوق . أحسها تفتح ذراعيها وتهم بالنهوض لملاقاته. أحس ذلك من البسمة التي تغطيها . وركض اليها وهو يكاد يقسم ان لا تقوم . هجم يعانقها ويبكي .

وانتبه إلى نفسه يجول في الأرض كطفل . يلعب مع نفسه . تحرك بسرعة في كل اتجاه . . نحو الساقية والصخرة وشجرة الجوز ، والدوالي . كل دالية تعرفه ويعرفها يحتضن كلا منها بعينيه ثم يتحول إلى غيرها . كيف يمكن أن تباع هذه الأشياء ؟ البقرة أيضاً ما تزال مكانها . ها هي ذي تلتفت باحثة عنه . لقد اشتاقت إليه هي الأخرى . وهجم عليها فاحتضن عنقها وقبلها . ظمأى ولا شك . ولم يحب أن يتعبها. ذهب إلى النبع عبأ سطلاً من الماء وجلبه إليها . وحينما أخذت تغر الماء أحس عذوبته في حلقها . وبعد ان انتهت من الشرب فك رباطها وقادها بلطف إلى البيت .

كان سعيداً أنه ما يزال يسير معها . وكان منشرح الصدر بعد أن اغتسل بالبكاء . وبسعادته العارمة التفت إليها وهو يضحك ضحكة هي مزيج من البكاء والفرح :

«تصوري أنهم كانوا يريدون ان يشتروك» .

الفصل السابع

بهدوء غابت الشمس هذا المساء . بهدوء انسحب الفيء أمامه على وجه الأرض كالملاءه . وبهدوء هبت النسمات العذبة وهو متكىء أمام البيت .

وحين خيم الظلام والتمعت النجوم في السماء أحس برغبة في أن يدخن لفافة . وتذكر أن تبغه قد انتهى . ندم لأنه لم يأخذ معه دراهم إلى القنيطرة ليشتري .

وتذكر حانوت أبي هاني · لديه «حموي فلت» . سأذهب وأجلب كل ما في الحانوت . وسأعدها ، وحين يعود أدفع له ثمنها .

ونهض يجوس القرية الموحشة حتى وصل الحانوت . وحين وجد الباب مغلقاً دار ليدخل من النافذة المطلة إلى أرض الدار فداخله إحساس بأنه يسرق . التفت بغتة حوله ثم دفع النافذة ودخل .

الحانوت رطب وقاتم . أشعل عود ثقاب فوجد أن الفانوس ما يزال مكانه فأشعله . نقل نظره على المحتويات ثم على المصطبة الصغيرة والكراسي الصغيرة الموزعة . من هنا تفوح الالفة . هنا كانت الجلسات والمسامرات والتحدث إلى الجنود والمشاجرة معهم والشباب يسرقون أنفسهم ليلعبوا الورق أو يشربوا الخمرة التي يجلبها أبو هاني سراً .

كان الصمت ثقيلاً . وبدأ يحس ما يشبه صوت الأنفاس . والظلال بدأت تخيفه . ودون ان ينفض الغبار عن الباكيتات تناول مجموعة منها وقفل راجعاً بعد أن أطفأ الفانوس بنفخة .

حين ابتدأ يسير نحو البيت عاد إلى نفسه الهدوء . غضب لأنه خاف . . فأسرع الى البيت .

دخل فأودع حمولته تحت وسادته ثم حمل واحدة منها فتحها ، لف لنفسه لفافة أشعلها ثم رش على الباكيت قطرات من الماء وخرج فلفها بخرقة رطبة ثم وضعها قرب الباب . وعاد فاتكأ يستمتع باللفافة .

وفي الصمت سمع وقع أقدام . ظن لأول وهلة انها البقرة .

لكنها نائمة قربه . وهذا الدوس دوس ابن آدم . وقبل ان يقف ليرى من القادم فتح الباب ودخل .

كان شاباً قد لف حول رأسه حطة مبرقعة وكان في يده سلاح . توجس لأول وهلة : لص ام يهودي ؟ هم بالسؤال وبالاستعداد للمقاومة ولكن النظرة الوادعة في عيني الشاب جعلته يسترخي قليلاً .

- السلام عليكم . أنا عربي . لا تخش شيئاً .

وفك الحطة عن رأسه ، كان شاباً في مقتبل العمر . انه عربي .

- وعليكم السلام . أهلاً وسهلاً . تفضل .

وهم بالنهوض .

ـ حلفت عليك ان لا تقوم . إبقَ مرتاحاً . سأجلس هنا .

وجلس على البساط .

هل هو من الجنود الذين ضلوا طريق العودة ؟ مستحيل . كان ذلك منذ عشرة شهور . من هو إذن ؟

ـ هل أنت وحدك يا عم ؟

ـ نعم . خذ راحتك . وأنت ؟ هل أنت وحدك ؟

ـ نعم .

ـ مئة أهلاً وسهلاً بك . اخلع ملابسك . الحر شديد .

ـ لا حاجة لذلك . شكراً . أرجو أن لا أكون قد أزعجتك . لقد وصلت الآن وأنا جائع . فقصدت أول بيت فيه ضوء .

ـ أهلا وسهلا . خسيء الجوع .

وقام بهمة . جلب بعض الكسرات اليابسة من الخبز كان يحتفظ بها في تنكة فبلّها .

ـ أرجو أن لا تؤاخذني . ليس لدي إلا هذا الخبز . سأطبخ لك بعض البرغل . ما رأيك ؟

ـ كما ترى . الموجود .

أشعل النار ووضع الوعاء عليها .

قال الشاب : انا في المنصورة . أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ اذن لم أعد بعيداً عن القنيطرة ؟

ـ ساعة مشي .

وعاد الصمت من جديد . كان العجوز يضع الحطب تحت الطبخة وهو ما زال حائراً في من يكون هذا الشاب . ولكي يبدد الصمت سأله :

ـ هل تعرف المنطقة جيداً ؟

ـ كما أعرف كفي .

ـ من أين أنت قادم ؟

ـ من الأرض المحتلة .

ـ كل الأرض محتلة .

ـ من القدس .

ـ وكيف جئت الى هنا ؟

ـ ضللت الطريق ليلة أمس ولم أعد استطيع اللحاق بأصدقائي ثم اكتشفت نفسي في المرتفعات السورية .

ـ وماذا كنتم تفعلون هناك ؟

ابتسم الشاب بهدوء : كنا نقاتل .

ـ ماذا ؟

ـ نقاتل .

ـ من تقاتلون ؟

ـ العدو ، هل هناك غيره ، الصهاينة .

ـ لكن الحرب انتهت منذ زمن .

ـ لا . نحن ما زلنا نقاتل .

ـ عجيب . كنت أظن أن كل شيء قد انتهى . هل أنت عسكري ؟

ـ لا . كنت طالباً في الجامعة .

ـ وتركت دراستك لتقاتل ؟

ـ نعم .

كان العجوز عاجزاً في هذه اللحظة عن إدراك ما يرمي إليه الشاب . أنزل الطبخة عن النار . صب البرغل في صحن كبير وقربه من الشاب .

ـ هل تأكل بصلاً ؟

ـ نعم .

قدم العجوز البصل .

- تفضل . ابدأ الطعام .

- شكراً . ألا تأكل معي ؟

- أسايرك . انني في الحقيقة لست جائعاً . لا تؤاخذني . هذا هو الموجود .

- هذا كاف . خيركم واجد . بسم الله .

وبدأ الطعام . قال العجوز :

- لا تؤاخذني اذا أكثرت من الأسئلة . لكنني لم أفهم ما قلته قبل قليل .

- ما الذي لم تفهمه ؟

- قلت لي أنك لست عسكرياً .

- نعم .

- ومع ذلك فأنت تقاتل ؟

- يا عم . لقد حدث ما حدث في حزيران . وهزمت الجيوش . نحن لم ننته . ليس من الضروري أن تنتهي الحرب إذا انهزم الجيش . الحرب لم تنته . ويجب أن لا نترك العدو يستقر .

- وهل هناك فائدة ؟

- طبعاً . لولا ان هناك فائدة ، لو أننا يئسنا نهائياً لما قاتلنا ولما بقيتم في أراضيكم .

يا للفرحة . هذا رجل آخر لم يهزم . رجل آخر يفهم .

- كنت أقول دائماً اننا لم نهزم .

- كان علينا ان نقاتل منذ زمن طويل . لقد تأخرنا كثيراً . ولكن لم يفت الأوان بعد .

- هل أنتم كثيرون ؟

ـ لا بأس .
ـ مئة ؟
ـ بالآلاف .
ـ عظيم .
ـ لا . يجب ان يقاتل الآخرون كلهم .
ـ والآخرون ماذا يفعلون ؟
ـ لا شيء ، يكرهون أنفسهم ويحبوننا لأننا نموت .

اللعنة ، هذا رجل آخر خذله الآخرون ، وقف يتملى الشاب الذي كان يأكل بشهية . ولام نفسه لأنه لم يقدم له طعاماً كافياً . وخطر له أن يذبح البقرة . نعم . هذا يستحق .

ـ لا تكثر من البرغل . انتظر قليلا . سأصنع لك عشاء جيدا .
ـ لا . شكراً هذا كاف .
ـ لا والله .
ـ لا تحلف . لقد شبعت . ولن أطيل الجلوس هنا . اجلس ودعنا نتحدث قليلا . الحمد لله .

دفع الطبق من أمامه ثم عاد الى الحديث :

ـ أريد أن أوصيك بأن لا تخبر أحداً بمجيئي إليك لئلا يضايقوك .
ـ وهل أنا طفل ؟ هل من المعقول أن أقول لهم .
ـ لا أعني العدو فقط ، لا تخبر حتى اخوانك في القرية . قد تفلت كلمة تكلفهم الكثير .

تنهد العجوز بحرقة : لا تخش شيئا .
ـ خير ؟ فيم تنهدك ؟ هل هناك ما يزعجك ؟
ـ لا . لكنني لن أستطيع إخبار أحد . فأنا هنا وحيد .

ـ وحيد ؟
ـ نعم . وغص بالبكاء .
ـ لم أفهم .
ـ أعني أنني الوحيد الذي بقي في هذه القرية .
ـ وليس هناك أحد غيرك ؟
ـ أبداً .
ولماذا بقيت ؟
ـ والى اين اذهب ؟ هنا أرضي . وأنا انتظر عودة من رحل .

كانت المفاجأة أكبر مما توقع الشاب . اخذ يتملى العجوز من جديد فاكتشف في ملامحه وشعره الأبيض وعينيه المغرورقتين بالدمع ملامح قديس .

ـ الا يضايقونك ؟
ـ قليلا . اليوم اخذوني الى القنيطرة . خفت . ظننت انهم يريدون بي شراً . وإذا بهم احزر ماذا يريدون ؟ ان يشتروا البقرة .
ـ يريدون ان يشتروها ؟
ـ نعم . ولم ابعهم طبعاً . لم يستطيعوا فهم أهمية البقرة بالنسبة لي وحاجتي اليها من اجل الأرض . فغضبوا . وقال لي الحاكم العسكري انهم يريدون بناء شيء هنا . نسيت ماذا كان اسمه . فقلت له لن ابيع بلط البحر .

ضحك الشاب وضحك معه العجوز . كانت ضحكة الشاب عذبة ولم يدر العجوز كيف قفزت الى ذهنه معركة تل الفخار . لقد سمع انها كانت معركة عظيمة . وقال في نفسه وهو يتأمل الشاب لو أن هذا الشاب كان في الجيش لعمل معركة مثل تل الفخار . ونبهه الشاب :

ـ معذرة . هل لديك سجائر ؟

ـ نعم . نعم . انتظر . سأجلب لك سجائر رطبة . وخرج الى حيث اودع الباكيت جلبها بسرعة والشاب يرقبه .

ـ أألف لك سيجارة ؟

ـ لا . شكرا . انا اتقن اللف .

وضحكا .

أشعل الشاب لفافته ونهض .

ـ إلى أين ؟

ـ آن الأوان . يجب أن أجتاز الحدود قبل الفجر .

ـ خذ هذا الباكيت .

وأمام الأيمان والرغبة الملحة لم يستطع الشاب ان يقاوم . فأخذها ومد يده إلى إحدى جيوبه وأخرج بعض المال .

ـ خذ يا عم . قد تحتاج إلى . . .

وقاطعه العجوز بحدة : أرجع دراهمك إلى جيبك . عيب يا رجل .

ـ أعني . من أجل مرات قادمة .

ـ ولا كلمة ، أعدها الى جيبك . (أطاع الشاب) هذه المرة مثل المرات القادمة ، كلما مررت هنا تستطيع ان تمر بي . أنت مثل ولدي وهذا البيت بيتك .

ـ ممنون .

ـ العفو .

وخرجا معاً . وبعد ان ابتعدا قليلا ، وقف الشاب .

ـ الآن يجب أن أسير وحدي .

ـ مع السلامة .

وفي الظلام شد كل منهما الآخر إلى صدره ، كان كل منهما يؤكد بحرارة انه قد وجد ما أحس أنه يفتقده منذ زمن . وكان العجوز يبكي . خلص الشاب نفسه ومضى .

راقبه العجوز قليلاً فأحس أنه يودع ابناً قد لا يراه .

- يا ابني .
- يا عم .
وعاد الشاب
- لم تقل لي اسمك .
- هل هو ضروري ؟ نحن نبقي أسماءنا سراً ، ونحمل أسماء مستعارة .
- كما تشاء .
- ما اسم ابنك الكبير ؟
- حامد .
- اعتبرني حامد .
- أنا خائف عليك يا حامد .
- بارك الله فيك ، لا تخف .
واحتضنه العجوز من جديد .

- ما رأيك لو تظل هنا ؟ سنعيش معاً ونعمر هذه القرية .
- لا يجوز ، القتال أفضل .
- أنا أدري ، لو لم أكن عجوزاً . . .
- بقاؤك هنا مثل القتال . سأحتاج اليك كثيراً في المستقبل .

لقد سبقه العجوز إلى التعبير عن مخاوفه . ولم يجرؤ على توجيه أية نصيحة .

أحس بالحرج كولد يحاول نصح أبيه .

- لماذا تبكي ؟
- عليك
- لا تخش شيئاً .
- أخاف أن تموت .

- الموت في كل مكان . لكنه يبتعد عنا كلما اقتربنا منه .

- وهل هناك فائدة ؟
- طبعا هناك فائدة .
- أما من وسيلة أخرى .
- لا لم يبق الا السير مع الموت .
- الموت مخيف .
- لا تيأس من رحمة الله .

خجل العجوز .

- ولكنني رأيتهم يهربون بالآلاف .

- إنهم يعودون الآن واحداً فواحداً . وسيصبحون آلافاً ممن لا يهربون .

- ومتى يقاتل الجميع ؟
- عندما نموت نحن .
- تموت ؟
- نعم ، وإلا ظلوا في بيوتهم .
- لا يا حامد لا تمت أرجوك .

أدرك بغتة أنه يتحدث كطفل لكنه لم يستطع تمالك نفسه ، هجم عليه يحتضنه من جديد ، ان مات لم يبق لي شيء .

ـ ان مت هناك غيري .

ـ مثلك ؟

ـ افضل مني .

ـ قل لهم ان يمروا بي اذا استطاعوا .

ـ سأدلهم عليك .

ـ وفقك الله . لقد أخرتك . خذا هذا الطريق وتجنب هذه القمة ففيها جنود .

شكراً .

ـ الله معك .

وأدار ظهره . خشي أن يلتفت الى الوراء . كأنما كان يتوقع أن يموت الشاب بين لحظة وأخرى . ولم يحب أن يراه يهوي .

وحده وقف يرقب القرية التي تسبح في الظلام والصمت وخطوات الشاب تبتعد حتى تلاشت . والتفت فلم يره . كان الظلام قد ابتلعه . وأطلق بصره الى أضواء دمشق . لم تكن الأضواء مرتجفة . كانت تتحرك كشجرة مزهرة تتمايل مع النسيم .

وانحدر الى القرية .

لو لم أكن وحدي . لو كان هناك آخرون . كنا فعلنا الكثير لهذا الشاب المهموم . لماذا لم يبق أحد ؟ للمرة الأولى يتساءل بهذه الحدة اللعنة عليهم

اين العصي في مشاجرات العشيرتين ؟ اين شجاعة الشباب واين كلماتهم الكبيرة التي لم نكن نفهمها ؟ اين الدرك واحذيتهم الثقيلة التي كانت ترفس الوجوه ؟ اين بنادقهم المعلقة وهم يأكلون الذبائح ؟ هل كانت مخازنها ، كما يقول الأطفال ، محشوة خرقاً ؟ اين العناد على شبر أرض ؟ والقتل والثأر ثم الثأر ثم الثأر .

كان وحيداً كشجرة دون حماية وجذعها لم يعد يقوى على الحمل . ساعة وداع الشاب كانت ساعة عري .

وداهمه الشعور الحاد بالوحدة . احس بالحاجة الى الآخرين . انه يحبهم : يحب ابناءه وابناء اخصامه من العشيرة الأخرى . والدرك يحب الجميع . كان الشجار معهم نوعاً من حبهم . لا معنى للحياة بلا أناس نشاجرهم لكي نحس الحياة معهم . وجنود يفسدون الموسم بحفر خنادقهم ، كل هذا اصبح الآن جميلا . وتمنى لو يعود كل شيء . كنت اغير معاملتي للجنود . احبهم اكثر . واساعدهم . ولا أتقاضى منهم ثمن شيء .

وانتبه الى نفسه عندما اصطدمت قدمه بحجر تدحرج ودحرج عدداً من الحجارة أصدرت صوتاً مفاجئاً .

ندم لأنه احس بالحاجة الى ابنه حامد . هذا ليس نافعاً لأي شيء يجب ان اعمل وحدي . حامد ذو البندقية هو الشاب النافع . آه لو كنت شاباً . وتذكر الصخرة . لو كنت شاباً لرفعت الصخرة . لكنني سأرفعها . هذه الصخرة ضربت شروشها في الأرض لأنها تركت هناك منذ زمن طويل جاءت من مكان ما . سقطت ، ربما ، من الجبل ثم ساعدها اهمالنا لها على ان تصبح قسماً من الأرض وعلى ان تعذبني نهاراً كاملا .

كان يحس بالحاجة المحرقة لأي إنسان يحدثه عن اي شيء . ويحدثه عما رأى في هذه الليلة .

وقدر أنَّ بينه وبين هذا الفتى شيئاً مشتركاً . كلاهما مستمر في اعماله وكأن الحرب لم تقع . أو كأنها لم تنته . كأن العدو لم يحتل شيئاً جديداً .

حين يراهم سيحدثهم بكل شيء . وسيشعرهم بالخجل لأنهم تركوه وحيداً طوال هذه المدة . وسيحسدونه لأنه الوحيد الذي قدم مساعدة لهذا الفتى .

لم يسأل نفسه لماذا جاء الى المقبرة . لقد قادته قدماه دون ارادة . وداهمه شعور بالرهبة . لم يعد في القرية الا انا والبقرة وهؤ لاء . ولم يكن في حاجة الى البحث كي يهتدي الى قبر زوجته .

حين اقترب من القبر استيقظت اتعابه . ورغب في البكاء . فجلس على الأرض ومد يده بهدوء ليمسح ترابه . احس انه يمسح جبينها او جسدها . كانت خشونة الأرض وتعرجاتها شبيهة بجسد زوجته العجوز قبل موتها . سمعها تقول له : «انطفأنا يا أبا حامد . لم أعد صبية» كانت تقولها بذاك الدلال الذي لازمها طوال عمرها والذي لم يصل بها أي يوم الى العناد .

لو رأيت هذا الفتى الذي زارني اليوم . ذكرني بكل شبابي . كان في حاجة إلى يديك تطبخان له شيئاً يتزود به في سفره . لو كنت شاباً .

«عيب . لم تعد شاباً» وهي ترتعش تحت يده التي تتحسس جسدها ثم تلتصق به وينامان حتى الصباح . كانا ملتصقين طوال الحياة المشتركة التي قضياها معاً منذ الليلة الأولى .

امتلأت ذاكرته بضوضاء العرس . بدبكات الشباب . بزغردات النساء وكان جسدها صلباً وقوياً . وكانت الضوضاء تتسرب الى المخدع الذي ضمهما في الليلة الأولى . حيث قاومت قليلا . لكن صلابة جسدها لانت له بعد قهر وعورته . كان الجميع يصخبون فرحاً . وكان الجميع ينتظرون منه اثبات مقدرته . والا سخروا منه في الصباح . وبعدها تسلمه الزوجة نفسها وهي اقوى منه . لكنه كان شاباً مثل الجسر فاغتصبها تلك الليلة . وبعدها التصقت

به إلى الأبد . ولم تحقد عليه . بل أحبته . وأحبها كما أحب أرضاً قهر وعورتها وتمتع بخصبها .

تزوجتك مرغمة . لم تكوني تحبينني . لكن الحياة المشتركة القاسية وانتظار المواسم والوليد وغبطة الانتهاء من المنازعات الصغيرة والأعمال القاسية . والزوادات التي كنت تجلبينها الى الحقل والى المخبأ الذي سترني عن أعين الدرك أشهراً طويلة . واللمسات اللذيذة التي تتسلل من الخوف في تلك المخابي . هذه الأمور كلها ، وغيرها جعلتنا نتحابب . ويتعود كل منا على الآخر .

وأحس بأن عليه أن يفضي بما منعته كبرياؤه من الافضاء به من قبل . كانت ايامي قاسية بعدك ومجدبة . الأولاد ليسوا عزاءً كافياً . حين فقدتك احسست انني فقدت شيئاً مني . شيئاً كذراعي او عيني . كنت أفتقدك دائماً . حين مت قال ابناؤك انك ارتحت . اصحيح هذا ؟ وهل سيقولون عني مثل هذا الكلام عندما أموت ؟ ربما فعلوا . ربما قالوا ذلك وهم يحملون جنازتي . لماذا يقولون كلمات كهذه ؟ يبدو لي ان ارتباطهم بنا ضعيف . كنا نحب آباءنا أكثر . وهم يحبون أبناءهم اكثر منا ولهذا تركونا وهربوا بهم . لماذا يتخلون عنا بهذه السهولة تخلوا عني وعنك وعن البقرة وعن الأرض . ماذا يحبون اذاً ؟ حين يعودون لن اعيش معهم تحت سقف واحد . يظنون انني محتاج اليهم . أنا لست عاجزاً . سأقسم الرزق بينهم وسأترك لنفسي ما يكفي . أنا لست في حاجة اليهم . انا في حاجة اليك وحدك ، ان البقرة ترفع رأسها كلما نزلت الى الحقل وتلتفت في كل اتجاه أنا أعرف أنها تبحث عنك . منذ سنتين وهي تنتظرك . هي الأخرى في حاجة اليك .

كان يبكي . وكانت الدموع تتسرب عبر لحيته التي لم تعرف الحلاقة منذ شهور . وأحس بالراحة . خلصته دموعه مما كان يحبسه في صدره . وهبت نسمات عذبة على وجهه فاسترخى على القبر . وراح في سبات عميق .

الفصل الثامن

فتح عينيه بصعوبة ، شمس الضحى مسلطة فوقه . والعرق يتصبب من كل مكان في جسده . . لم يعهد في نفسه هذا النوم العميق . وتذكر ان البقرة ما تزال دون طعام . فنهض متثاقلا وسار الى البيت .

سرقني النوم ولم أستيقظ لصلاة الفجر . لكنه لم ير هذا أمراً مهماً ، كان رأسه متعباً ولا شيء يخطر في ذهنه الا ومضات حول ذلك الفتى الذي كان يحمل المطرة والجعبة والبندقية . هل سيعود الي مرة أخرى ؟؟ وحين اضطر الى الاتكاء وهو يفكر في الشاب تأكد له عجزه . لست مثله . هذا الشاب لا ينام في مقبرة وهو يبكي ويناجي قبراً . هذا انسان يعمل . كيف نمت في المقبرة ؟ ودفع الباب بقوة تحمل نقمته على نفسه وأخرج البقرة دون أن ينظر اليها .

وما ان وقف بباب البيت والبقرة وراءه حتى صعق . كانت النار تلتهم الحقول غير البعيدة عن القرية . لم يصدق عينيه لأول وهلة . حقول القمح !! وركض بكل ما لديه من قوة .

بدأ الاطفاء منذ وصوله . النار في الحقول كلها . بدأ يغرف التراب بكفيه ويدوس النار بقدميه . خلع قميصه وبدأ يضرب به السنابل المشتعلة .

كان واضحاً أن النار لن تنطفىء بجهوده وحدها . فالحقول الأخرى تتكسر تحت ألسنة اللهيب . والعرق يتصبب من جسده . يبدأ الاطفاء هنا فيرى

أن النار تركض في تلك الحقول بسرعة مخيفة . ويركض الى كل مكان فيه نار . يضرب قميصه دون جدوى . أي ابن كلب رمى عقب لفافة أو أشعل عود ثقاب !

وقف وسط النار وبدأ يصيح : «حريق . حريق» وحدك يا ادريس . يا ادريس ! من تنادي ؟ أين أهل القرية ليروا مواسمهم وأراضيهم «حريق» وهو مدرك أنه وحيد . لكن كيف يبقى صامتاً ؟ يجب أن يسمعه انسان . ليس من المعقول أن تلتهم النار هذه المواسم بهذه البساطة «حريق» وعيناه تدمعان من الدخان والسعال والحر .

«حريق» . «حريق» . الشمس محرقة والأرض أتون والنار في كل الحقول وفي قلبه . «حريق» والتفت من جديد الى الرزق الذي تلتهمه النيران والى الأرض التي دللها ودللها أهل القرية وهي الآن تتلوى . حريق ! مستحيل . مستحيل . وعاد يضرب بقميصه . نصف عار بين ألسنة اللهب يضرب يميناً ويساراً . حريق ! ويركض ادريس يا صاحب النخوة . ماذا أفعل ؟ أنا وحدي . أنا وحدي . والنار كبيرة . أنا وحدي والأرض المحترقة واسعة . وحدي . وحدي .

وارتمى على الأرض يبكي بيأس وحرقة .

وحين سمع وقع أقدام قربه رفع رأسه وقلبه يقفز فرحاً . وثب من مكانه وإذا به وجهاً لوجه أمام عدد من الجنود الاسرائيليين .

تمنى لو يعانقهم . أحبهم من كل قلبه . المهم انهم بشر يسمعون الاستغاثة ، ويستطيعون مساعدته . ودون أن يتكلم حمل قميصه وعاد يضرب

به اللهيب بنشاط متجدد . ضرب عدة ضربات فلم يحس أنهم يفعلون شيئاً . ومضت في ذهنة وقفتهم . كانوا جامدين . ولم يبد عليهم أنهم سيساعدونه . والتفت اليهم مندهشاً . وكاد يصرخ بهم ان يعجلوا فاصطدم بوجه قاس يقترب منه بعصبية ويشده من كتفه بعيداً .

استسلم ليد الجندي وقد لجمته المفاجأة . لكنه كان مستمراً في الكلام : «النار . النار . انظر . انني اطفئها» والتفت الى الآخرين مستعيناً لكن لم يحرك أحد منهم ساكناً . ولم ينفرج أي وجه .

ربما كانوا هم الذين أحرقوها. وانتزع نفسه بقوةمفاجئة من يد الجندي واقترب من الآخرين «النار تأكل المواسم كلها . ألا ترون ؟ حرام عليكم . احصدوه . خذوه . لكن لا تحرقوه . صحيح أنه ليس موسماً جيداً . لكنه رزق . استفيدوا من التبن» .

ظلت وجوههم مغلقة بقسوة . للمرة الأولى في حياته أحس أنه يكره مخلوقاً بهذا المقدار . ولم يعد قادراً على تمالك نفسه . فأغار بغتة عليهم . وضرب أول من صادفه بقبضته ضربة حاقدة وأغار يضرب الثاني قبل أن يستقيظ الجميع من المفاجأة . وحين توجه ليضرب الثالث فاجأته ضربة من كعب بندقية على مؤخرة رأسه فخر بلا وعي .

الفصل التاسع

حين استرد وعيه كان العرق يبلله ، وداهمه الألـم من جرح في رأسه تحسسه واستعاد في ذاكرته كل شيء . قلب نظره في الأرض حوله كانت الحقول تحولت الى رماد وكانت النيران تلتهم حقولاً أخرى بعيدة .

لماذا ؟؟

لم يستطع ان يجد جواباً معقولاً ، لماذا يحرقون الحقول ؟ قام متجهاً الى القرية ، وحين وصل التل المجاور لها التفت ليلقي نظـرة أخـيرة كان الدخـان يتصاعد من كل مكان ووشاح أسود يغطي كل مكان وأحس أن الأرض المدللة مقهورة ، وانها تلبس الحداد . التراب باق . لن يستطيعوا احراق التـراب ، هذا الموسم المحروق سيصبح سماداً وستصبح الأرض اكثر خصباً ، اياك أن تعطيهم موسماً . احفظي كل شيء لأبنائك الذين سيعودون .

والتفت عائداً الى القرية .

في القرية سمع أصواتاً وجلبة ، تساءل : عادوا أخيراً ؟ وأسرع خطاه . وحـين دار حول جدار البيت المجـاور رأى جنـوداً اسرائيليين يكسرون أحـد الأبواب وآخرين يخرجون أمتعـة بيت آخـر وحـين اقتـرب أكثـر رأى شاحنـة عسكرية قد امتلأت حتى منتصفها بأمتعة بيوت أخرى .

داهمه غضب حاد ، الكلاب ، يتصرفون وكأنهم في بيوتهم . اسرع نحوهم صائحاً : «هيه . أتظن هذه البيوت بلا صاحب ؟»

التفتوا اليه بدهشة ، قال أحدهم مخاطباً زميله : «انظر» .

وتوقف عدد منهم يراقب العجوز وهو يتقدم منهم بجسده المليء نصف العاري وشعره المشعث الأبيض ، وحين أصبح بينهم اتجه دون كلام الى شاب يحمل فراشاً على ظهره وسحبه بقوة مفاجئة أوقعت الفراش على الأرض وجعلت الجندي يترنح مكانه .

وغرق الجنود الواقفون في الضحك ساخرين من زميلهم . والتفت الجندي حانقاً وقد أذهلته المفاجأة وحين رأى العجوز ابتسم قليلاً ، ثم نقل ناظريه في وجوه زملائه وغرق في ضحك أخذ يرتفع قليلاً حتى أصبح قهقهة صاخبة .

زاد ضحكهم من غضبه فأخذ يجر الفراش عائداً الى البيت ، دفعه الى الداخل ثم التفت ليعود الى السيارة ، إلا أنهم كانوا قد أحاطوا به وقد قرروا أن يتمتعوا بلحظات من الضحك .

- هل ظننتم أنها بيوت بلا أصحاب ؟

ودفع أحدهم في صدره ليزيحه من طريقه ، الا أنه لم يتمكن من زحزحته ، وتظاهر الجندي بالخوف والخجل : «معذرة ، هل هذا بيتك ؟» قال العجوز : لا ، لكن له صاحباً .

قال جندي آخر ساخراً : وأين صاحبه ؟

فالتفت العجوز إليه بحماس : لقد ذهب أيام الحرب.وسوف يعود .

وبدأ يلتفت اليهم جميعاً وهو يتكلم بما يشبه الصراخ «سيعودون جميعاً ، ولا يجوز أن يجدوا بيوتهم خاوية . ماذا سأقول لهم ؟؟ ثم من أين لكم الحق في أخذ هذه الأمتعة» . وانتبـه الى أنهـم لا يسمعونـه . رأى ذلك في عيونهـم ، فتوقف عن الحديث ولم يدر ماذا يفعل .

وانقذه من حيرته سؤال من أحد الجنود : «هل أنت وحدك هنا ؟»
فأجابه بسرعة : «نعم» .

قال الجندي بعربية ركيكة : «حسناً . سنعطيك إيصالاً . وحين يعـود جارك أرسله إلينا ليتسلم امانته وتستطيع إذا شئت أن تأخذ ايصالات للجميع . سنعود غداً ونجلب لك الايصالات » .

كان بقية الجنود يشاركون في الضحك دون أن يفهموا ما يقال ، والتفت الجندي الذي كان يكلم العجوز فترجم لهم ما يقترحه وفرقعت الضحكات ، أجال العجوز عينيه في وجوههم فأحس بالعـرق يتصبـب من كتفيه . وأحس بالاعياء ، وتمنى لو يجلس .

ظل يجول بعينيه المتعبتين في وجوههم ، وتذكر الفدائي . لو كان هذا الشاب هنا لتغير الموقف . وتصور ان خير مكان يستحق هذا الجندي أن يصاب به هو فمه .

وداهمته الرغبة في البكاء ، لكن كبرياءه منعته ، كان الجندي قد عاد الى الحديث الساخر : لا تصدق ؟ تستطيع ان تدلنا على بيتك كي لا نقترب منه .

أحس انه كالسجين ، كان محاصراً بأجساد الجنود المتضاحكين بينما جنود آخرون ما زالوا منهمكين في نقل الأمتعة ، وكان أحدهم يحمل من أحد البيوت مذياعاً وهو يتراقص بخلاعة على أنغامه .

وانتبه الجندي الى البقرة التي كانت على التل . قال مخاطباً العجوز .

- هل هذه البقرة لك ؟

وأومأ العجوز برأسه مستسلماً . وعاد الجندي الى الحديث بلهجته الساخرة ذاتها «لا أراك حريصاً على أملاك جيرانك كما تدعي ، فبقرتك حرة ترعى في أي مكان ، وربما اعتدت على أرزاق الجيران» .

أراد العجوز أن يقول له أن الأرزاق كلها قد احترقت لكنه لم ير ضرورة لذلك ولم يشعر بالرغبة في فتح فمه .

والتقت عيناه عبر أجسادهم بعيني الملازم الذي كان يقترب من جنوده غاضباً .

تفرقوا مستجيبين لأوامر الملازم ، وانتشروا حول السيارة وفي البيوت . التفت اليه الملازم ونهره بلهجة صارمة مشيراً بيده أن يبتعد . ثم عاد الملازم ينادي الجندي الذي كان يتكلم العربية وتحدث اليه فقال الجندي للعجوز :

«سيدي الملازم يقول : لا تدعنا نرى وجهك بعد الآن ، هيا من هنا» .

أطرق العجوز برأسه وسار مستلماً صوب بقرته مكدود الذهن عاجزاً عن التفكير في أي شيء. كان مليئاً بالغضب . وكان غضبه صلباً كالحجارة فلم يستطع البكاء .

أمسك بالحبل المربوط الى البقرة وجرها وراءه وهو صامت ولم يجد في نفسه القدرة على النظر حوله . الى يمينه القرية المنهوبة . الى يساره الأرض المحروقة . وهو وحيد مع بقرته فجلس .

كان الجنود قد انتهوا من إملاء الشاحنة . وتحركت للمسير . بقي عدد من الجنود في القرية وقد تلقوا أمراً من الملازم قبل أن يركب .

سمع العجوز صوت السيارة وهي تبتعد فلم يرفع رأسه ، كان يبدو كالنائم ، وحين مرت طلقة قربه ارتجف قليلاً والتفت الى الجنود باعياء .

قال الجندي الأول : لقد أخطأته ، الرماية على هدف كهذا في خط الأفق سهلة . انظر .

وأطلق الطلقة الثانية .

شهق العجوز وارتمى على خاصرته مفلتاً حبل البقرة وسال الدم من عنقه غزيراً .

في اللحظة الأخيرة تذكر الفدائي . لن يراني حين يمر بالقرية . هل سيدفونني ؟ لو كان هنا أحد من القرية . هل . . ؟

كان الدم النازف من عنقه قد اختلط بالتراب تحته ، اختلج قليلاً فانجبل التراب الدامي على وجهه الذي انكفأ مع الشهقة الأخيرة .

روايات ومجموعات قصصية

صدرت عن دار الحوار

* الجبانة - شاركدي إمرة - ترجمة نافع معلا
* أهالي دبلن - جيمس جويس - ترجمة أسامة منزلجي
* ينداح الطوفان - نبيل سليمان
* الضياع - ابراهيم الخليل
* أيام من اعوام الانتظار - موسى السيّد
* سيول الربيع - همنغواي - ترجمة محمود قدري

دار الحوار للنشر والتوزيع

سورية - اللاذقية

مطبعة دار العلم

http://facebook.com/kotobmamno3a
تصوير